طوينا »ذاكرة الصحافة المغربية» التي ستصدر في كتاب، لنحلق بعيدا في رحاب نفس القطاع، ولكن مع الاختلاف في كون السفر الأول كان في الزمان، رجوعا إلى ماضي المؤسسين، وهذا السفر الثاني هو سفر في المكان بحثا عن بروفايلات ومسارات الصحافيين المغاربة العاملين بالخارج. هم كثر يعدون بالمئات، متألقون، حيث يشتغلون في القارات الأربع وفي أكبر المؤسسات الإعلامية عبر العالم، منهم المدير والمسؤول ورئيس التحرير وكبير المراسلين، ومنهم المحرر والمراسل الحربي والمحلل، لهم حكايات وقصص ومغامرات تستحق أن تروى لتكون شاهدا على أن السؤال الذي نطرحه هنا يبقى مشروعاً: لماذا توجد أنفس الكفاءات الصحافية في الخارج والإعلام هنا في الوطن ينن؟ الجواب في ثنايا هذه الشهادات لكتاب التاريخ اليومي بأقلام سفراء المملكة الشريفة.

سعيدة بودغية: الإعلام الملتزم في خدمة قضايا الهجرة

من التحرير في السبورة الحائطية إلى رائدة الإذاعات الاجتماعية باسبانيا

تجربة سريعة في مهنة المتاعب في المغرب وبعدها الانطلاق إلى إسبانيا في وقت حساس بدأت تتحول فيه الجارة الإيبيرية من بلد مهاجرين إلى بلد استقبال للهجرة، في هذا السياق ستساهم سعيدة بودغية من زاوية الإعلام في التأثير على رأي عام إسباني عنده كم هائل من الأحكام المسبقة عن المغاربة خصوصا أو "فوبيا المورو".

» حاورها: عبد الإله سخير
sakhir72@gmail.com

سعيدة بودغية خلال إذاعتها أحد البرامج

← بداية كيف أغرمت بمهنة الصحافة؟

■ الصحافة استهوتني وأنا في مرحلة الدراسة الابتدائية، وكان الفضل يرجع إلى معلمي ومعلماتي آنذاك، بحيث كانوا يدفعونني دائما لدور القيادة في كل الأنشطة الثقافية التي تنظمها المدرسة، كنت أتقمص أدوارا جد ملهمة في فرقة المسرح المدرسية .. كذلك كنا نصدر مجلة شهرية اسمها "الجيل الصاعد" نقوم بتحريرها نحن التلميذات بإشراف معلمينا، أذكر أنها كانت مركبة من أربعة أوراق من الحجم الكبير، والكتابة كانت بالقلم، وعندما كنا نكمل التحرير، تنسخ الورقات حسب عدد المجلات المقرر إصدارها، بعدها نلصق ورقة ببعضها حسب ترتيب الفهرس ويتم إنجاز المجلة ثم توزيعها، ولا أنكر أن الفقرات التي كنا نشارك في تحريرها كانت جد غنية مقارنة مع مستوانا وسننا في ذلك التاريخ من أواخر الستينيات من القرن الماضي.

كان دوري أن أحرر شخصية العدد وأنا في سن ما بين الثامنة والتاسعة من عمري- أول حوار أجريته كان مع النائب الإقليمي لنيابة التعليم آنذاك -أتذكر أننا حضرنا أسئلة الجلسة بمعية معلم ومعلمة- وقبل أن نلتحق بمكتب السيد النائب أوصاني بأن ألقي الحوار وأنا جالسة- وعندما دخلت، جلست على كرسي وارتبكت، فهممت بالوقوف وألقيت عليه بتحية وكأنني في درس المحادثة-! صباح الخير ياسيدي النائب.

← ما هي المؤسسات الصحفية التي اشتغلت بها داخل المغرب؟

■ في المغرب لم أرتبط مهنيا بأي مؤسسة إعلامية ، لكن كمبتدئة مدرستي الأولى كانت جريدة "الميثاق الوطني"، ففي منتصف الثمانينيات من القرن الماضي كانت هذه الجريدة تصدر ملحقا أسبوعيا يسمى "ميثاق الشباب"، وكان يهتم بالصحافيين والكتاب الناشئين، من شبان وشابات، وذلك بنشر مقالاتهم الصحافية وإبداعاتهم الأدبية، وكنت من المداومات على الكتابة والمشاركة في ذاك الركن من الجريدة لمدة طويلة، وكانت تجربة جد غنية، صقلت معارفي ومهدت لي الطريق للدخول لهذا العالم الشيق، والمثير والمتعب أيضا.

منحت لي فرصة العمل في المغرب عبر مشاريع إعلامية ممولة من طرف جامعة مالقة والجامعة المستقلة مدريد لفترات متقطعة 2007 – 2010 ..

← كيف جاءتك فكرة السفر إلى الخارج والتحاقك بالمؤسسة التي تشتغلين فيها الآن؟

■ سفري إلى الخارج وبالضبط إلى مدريد إسبانيا كان لسبب عائلي، ففي سنة 1987 بدأت خطواتي في عالم الهجرة، التي فتحت آفاقا واسعة في حياتي – وأثرت إيجابيا في مسيرتي الأكاديمية والمهنية – فمنذ البداية، زاوجت بين الدراسة والتحصيل والعمل، عام 1990 تزامن مع قرار الحكومة الإسبانية بفرض التأشيرة على المغاربة – وفي نفس الوقت تقنين وترتيب الهجرة بمنح بطاقات الإقامة والعمل للمهاجرين المقيمين آنذاك بشكل غير قانوني.

وهذا الحدث التاريخي شكل بداية التحولات المجتمعية، ففي وقت قصير، تحولت إسبانيا من بلد هاجر أبناؤه بكثرة إلى دول أوروبية وأمريكا الجنوبية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي إلى بلد متلق لجموع كثيرة من الوافدين عليها، فأصبحت الهجرة والمهاجرون محط النقاش – في الإدارة، في البرلمان، وكل المنتديات، إلا في وسائط الإعلام فقد كان هناك خصاص زائد-، ذلك لأن الإعلام آنذاك لم يكن معتادا على طرح مواضيع الهجرة أو المهاجرين، كما أن الإعلاميين لم يكونوا مؤطرين من أجل ذلك.

لكن الخطاب أو الطرح الإعلامي لم يكن قضية أولوية في ذلك الوقت ، فقد كان على الحكومة أن تؤسس لقطاعات أخرى تختص بتسهيل الخدمات القانونية والاجتماعية لهؤلاء الوافدين الجدد من جهة، ومن أخرى، العمل على خلق ديناميات جديدة على المستوى المؤسساتي للتعامل مع قضاياهم..

حينها بدأت العمل في إدارة متعددة التخصصات تابعة للحكومة المستقلة لإقليم مدريد، وهي فرصة مكنتني من معرفة أغوار الإدارة، والمؤسسات الحكومية الإسبانية، فمن خلال 6 أعوام من العمل خرجت بمعارف وباستنتاجات مهمة، ملخصها أن انتمائي للأقليات كمهاجرة مغربية يضاعف من المسؤولية الملقاة على عاتقي، وأن المساهمة في ترقية العمل المؤسساتي الموجه للأقليات في إسبانيا لا تتطلب فقط الجدارة أو الكفاءة أو القدرة على التبليغ، وعلى المرافعة واقتراح الحلول، فبالرغم من كل هذا تصطدم مع البنية المؤسساتية ومنظوماتها وتقف بين اختيارين: إما أن تطالب بتغيير منظومات معينة، أو تشتغل بإصرار أكثر على إنتاج الأفكار التي تساهم في تحديث وتجديد البنية للقطاعات الحيوية التي من شأنها الارتقاء بشؤون المواطنين على جميع المستويات، بالأخص المهاجرين، وهذا هو الدور الذي اخترت العمل في إطاره سواء من خلال عملي التطوعي أو المهني.

قبل بداية الألفية الثالثة بقليل بدأت قضايا المهاجرين تطرح نفسها بشكل قوي في الحقل الإعلامي، فبدأ الإعلام يدخل المعمعة ، لكنه من حين لآخر كان يخلق بلبلة اجتماعية، بتركيزه على صور غير إيجابية عن المهاجرين، صور في نظري كانت تجرد المهاجر من ميزته الإنسانية، وتحيطه بكثير من أحكام القيمة التي تضاعف من مشاعر العنصرية والتهميش من طرف المواطنين الأصليين.

فبدأنا كخطوة أولية كمهاجرين نضم أصواتنا للهيئات الحقوقية والاجتماعية، وندين الإعلام بما يبعثه من رسائل سلبية حول المهاجرين، وإنضافت لأرض الواقع طروحات سياسية وأخرى من طرف الرأي العام، مطبوعة بالمد والجزر، بينما المجتمع الإسباني كان في أشد الحاجة إلى معرفة الآخر: ذلك الوافد الجديد، بثقافته وبتاريخه، وتفاصيل حياته (المهاجر) وسجل صراع مجتمعي مكثف أدى إلى مخاض وإلى حركية في المشهد الإعلامي الإسباني .

فأصبح لزاما على المؤسسات الإعلامية سواء المكتوبة أو المرئية والمسموعة الاعتراف بأنها أمام رهانات وتحديات، تكمن في أنه هناك واقع مجتمعي متغير، وأن من ضمن المسؤولية المنوطة بها، أن تقدم للمتلقي إعلاما نزيها وراقيا، ويستجيب لانتظارات الاتحاد الأوروبي الذي كان يمول آنذاك أغلب المشاريع التي تتعلق بالمهاجرين.

تلك الحركية والتفاعل من أجل التغيير، كنا من ورائه نحن وحفنة كبيرة من الزملاء الصحافيين والإعلاميين، من إسبانيا وأمريكا اللاتينية، ومازلنا حتى يومنا هذا.

كنا من جنسيات مختلفة، وبأفكار متنوعة وعديدة فبالموازاة مع عملنا الرسمي، اشتغلنا على هدف مشترك، ألا وهو العمل على خلق استراتيجيات لجعل العمل الإعلامي أكثر موضوعية ونجاعة عند التطرق لمواضيع الهجرة والمهاجرين.

كان ضروريا ومستعجلا وضع اللبنات الأولى لخلق خطاب صحافي وإعلامي، يدمج التعددية الثقافية والإثنية والدينية، ولأجل ذلك كان من اللازم أيضا وضع اللغة تحت المجهر- (أقصد التعابير اللغوية التي نحرر بها المنتوج الإعلامي)، والكلمات والتعابير ليس فقط أدوات لتصوير واقع معين، وإنما كذلك تساهم في بناء هذا الواقع- بمعنى أن الإعلامي أو الكاتب الصحفي هو وسيط بين الخبر

وبين المتلقي – وبيده تسليط الضوء على الزاوية التي يريد أن تظهر للعيان، وكذلك بيده اختيار اللغة التي يبلغ بها رسالته، من الممكن أن يتجه إلى أسلوب إقصائي وذي حمولة عنصرية- أو العكس.

في هذا الاتجاه اشتغلنا بكثير من الجهد، وساهمنا في إضافة ميكانيزمات جديدة للتواصل والإعلام ، كما شطبنا في النصوص الصحافية على التعابير الإقصائية، والعنف اللغوي، أيضا ركزنا على التحسيس بأهمية مواصلة العمل في هذا المنحى، وبمرور الوقت تكونت عدة جمعيات على المستوى الوطني ، بعدها تحولت إلى شبكات، وعن الشبكات تشكلت مجموعة ضغط قوية، كان من نتائجه أن الجامعات بدأت تعطي أهمية للدراسات والبحوث الميدانية حول صورة المهاجر في الإعلام مثلا- أو دورات تكوينية للصحافيين والصحافيات بعد التخرج، حول كيفية التعاطي إعلاميا مع الطروحات التي تنشأ عن مواضيع الهجرة. كذلك أحدثت مراصد كثيرة في مختلف ربوع المملكة الإسبانية تعمل على رصد المظاهر المسيئة لكرامة المهاجر سواء في الصورة أو في الخطاب وطرحها إعلاميا كموضوع للمرافعة والإدانة...

← هل يمكن أن تضعنا في صورة مجملة عن ظروف اشتغالك وأهم المحطات التي عشتها؟

■ سنة 2004 كانت حاسمة. التفجيرات الإرهابية في محطة القطار "أطوشا" بمدريد في 11 مارس، التي خلفت 190 قتيلا وأكثر من 3000 جريح، وألما عميقا في قلوب كل من شهد عن قرب أو بعد ذلك الاعتداء الشنيع .

فبعد أن بدأت تتسرب أخبار عن التحقيقات الأولى مشيرة إلى أن عناصر إسلامية متطرفة وراء تلك العملية الإرهابية ، بدأت السلطات الإسبانية تبدي تخوفها من أن تقع ردود أفعال عنصرية ضد المهاجرين من أصول مسلمة، فكان على الإعلام أكثر من وقت مضى أن يقوم بأداء رسالته بمسؤولية أكبر..

في نفس السنة تم تعييني في اتحاد الإذاعات الجمعوية مسؤولة مسيرة لقسم البرامج الخاصة بالتعددية الثقافية والإثنية. هذا الاتحاد يتشكل من خمس محطات إذاعية متموقعة في مدريد العاصمة والنواحي القريبة، وهو تابع للهيئة الدولية للإعلام الجمعوي، التي يوجد مقرها الرئيسي في مدينة "مونتريال كندا"، كان لابد من الاشتغال بشكل عاجل على مشروع إذاعي هدفه الرئيسي التقليص من وتيرة النقاش السلبي الذي يثير الحقد والعدوانية بين أفراد المجتمع.

اشتغلت مع باقي الفريق بطريقة "مراطونية". تم تسطير المشروع – وتفرعت عنه برامج متعددة المضامين وبدعامات وبأجناس إعلامية متنوعة.

وهذه الفترة، كنا قد عشنا مثيلتها في 2001 بعد أحداث 11 شتنبر بالولايات المتحدة الأمريكية، لكن تفجيرات مدريد مستنا عن قرب، وعشناها بكل ما ترتب عنها من دمار – وفي الخلاصة تلك الفترة العصيبة من تاريخ إسبانيا مرت، وكل مواطنيها من الأصليين، كما المهاجرين، رجال ونساء، أظهروا قدرة جد عالية على التعايش السلمي، وتصرفات راقية تجلت في عدم خلط الأوراق، بين المتطرفين، من تسببوا في ذلك الحدث الرهيب، ومواطنين مهاجرين يبحثون عن السلم والعيش الكريم، وكان من نتائج هذا أنه لم تسجل حوادث أو ردود أفعال عنصرية ذات حدة، أو عواقب وخيمة – إلا بعض التصرفات التي صدرت عن أقلية، وبقيت منحصرة في ما يعرف بالإسلاموفوبيا.

وكانت هذه محطة جد هامة في حياتي المهنية، بحيث كان الإحساس بالمسؤولية أكثر ثقلا، وعلى المستوى النفسي، عشت، بل (الجميع ممن تعاطى مع تفجيرات ذلك اليوم من الحادي عشر شتنبر) ولفترة من الزمن- مزيجا من المتناقضات التي كانت تختلط مع مشاعر الحزن والغضب وبين الموضوعية والذاتية، ومن جهة أخرى، وعلى المستوى العملي، كانت مرحلة قاسية، لكن المجهودات كانت تتوج بنتائج إيجابية يوم عن يوم، والحقيقة أننا كنا نملك كل الميكانيزمات التي يتطلبها الإعلام في تلك الظروف الصعبة. وهذا راجع أعتقد أنه كان بمثابة حصد النواة التي زرعناها في الماضي القريب

← وأنت في مؤسستك الاعلامية الحالية، ما هي أوجه الشبه بينها وبين المؤسسات الإعلامية عندنا بالمغرب؟

■ مررت بعدة وسائط إعلامية، في الصحافة المكتوبة ساهمت في جريدة "البايس" الإسبانية ، وعلى المستوى الدولي في وكالة "ثيماك" المكسيكية ....في مجال السمعي/ إذاعية، قناة "لاصير" /راديو "إستوديو" / "راديو باييكاس". وقمت بزيارات عمل إلى عدة دول بأمريكا الجنوبية: كولومبيا، الأرجنتين، شيلي والبيرو.

طبعا كل مؤسسة لها خطها التحريري وطابعها الخاص. الحقل الصحافي والإعلامي في إسبانيا يعتبر من أهم القطاعات الحيوية دون منازع، كما أن المنظومة الإعلامية لها سلطة هامة لأنها تتمتع بكل الشروط اللازمة: المهنية، الاستقلالية، الديمقراطية، والتعددية..

و لولا أن الإعلام في الوقت الحالي تضرر كثيرا في ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تمر بها إسبانيا، مما جعل عددا كبيرا من المؤسسات تقفل أبوابها وتعرض مئات من مهنيي الإعلام للبطالة، وبالرغم من هيمنة مراكز التحكم السياسي والمالي على بعض المنابر المستقلة (لا أعمم طبعا !)، تبقى التجربة الإسبانية، سواء بالنسبة للإعلام العمومي أو المستقل، سواء السمعي البصري أو المكتوب (إضافة الإكتروني منذ عهد قريب) جد مهمة على مستوى دول البحر الأبيض المتوسط. فقد ساير الإعلام الإسباني مرحلة الانتقال السياسي بعد موت الجنرال فرانكو في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وساهم في دمقرطة الحقل السياسي الإسباني – ومايزال يقوم بدور لامع في إدانة الفساد وإظهار الحقائق التي تصب في مصلحة المواطنين. و في الوقت الراهن نشهد من حين لآخر إطاحات من طرف الإعلام لشخصيات بارزة على المستوى السياسي، الاقتصادي، والإداري – ومنهم من دخل السجن، وآخرون هم بين أيدي القضاء، الخ – ولعل الحدث الذي خلف أكثر صدى على المستوى الدولي، –وأنتم تعلمون– زوج الأميرة كريستينا دي بوربون، ابنة الملك خوان كارلوس وأخت الملك الحالي فليبي السادس المتهم بأكثر من قضية: اختلاس المال العام، استغلال النفوذ، الخ.

كما أيضا قضية الأب الروحي للوطنية الكلانية مؤسس حزب الالتقاء والاتحاد "جوردي بوجول – الذي اعترف رسميا في شهر يوليوز الماضي بعد ضغوط مكثفة من وسائل الإعلام بأن له أموالا في بنوك دولية منذ ما يقرب من 35 سنة وحاليا القضاء يحقق معه، ومع أولاده أيضا، بتهم تهريب الأموال وعدم الأداء الضريبي –الخ..

(وهذا لا يعني أن هنا كذلك، يوجد إعلام ذو جودة ساقطة، وشركات إعلامية فقط تهتم بالعائدات، وجني الأرباح).

بالنسبة للمغرب أتابع كل التغيرات التي يشهدها على جميع المستويات، فبالنسبة للمشهد الإعلامي، أعتقد أنه لا مجال للمقارنة مع إسبانيا، ولا يتعلق الأمر بالكفاءات المهنية، المغرب يتوفر على طاقة بشرية في مستوى عال من الخبرة والتجربة في ميدان الصحافة والإعلام، المشكل هو الجمود والمماطلة التي تحول دون الإصلاح الشامل والجذري لمنظومة الإعلام والحقل الصحفي بالمغرب، وأن المسؤولين عن القطاع، والسياسيين وأصحاب المال، الذين يتغنون بالمغرب الدمقراطي، يجب أن يفهموا أن الديمقراطية لن تعم أبدا في بلد تنعدم فيه صحافة نزيهة حرة مستقلة.. يجب التسريع بالمصادقة على قانون الحق في الوصول إلى المعلومات ونقلها وتداولها، وكذلك اختيار النموذج الاقتصادي لتسيير هذا القطاع الحيوي الهام، عندها سيرقى الإعلام في المغرب، وسيتواصل أكثر مع الرأي العام، والكل سيصب في الديمقراطية بمفهومها الشامل.

← صفي لنا ظروف وإكراهات طبيعة عملك، وأيضا الطرائف التي تحدث لك.

■ بالنسبة لي، ليست إكراهات بقدر ما هي رهانات وتحديات في مهنة كالصحافة، مثلا: أنك دائم الحركة، ومتفاعل مع العمل، في بيتك، أو حتى وأنت في الشارع – خصوصا مع التطور المتسارع لتكنولوجيا الإعلام والاتصال، والتي تتطلب أن نكون في استمرار متواصل لتحديث تكويننا ومعلوماتنا . وهذا يتطلب بذل جهد لا متناه في تنظيمنا للوقت.

أتذكر عندما تولى الرئيس الاشتراكي "خوسي لويس رودريكز ساباتيرو" ولايته الثانية للحكومة الإسبانية في 2008 زار المغرب، وصادف أن كان الملك محمد السادس في زيارة رسمية لمدينة وجدة، بحيث كانت المدينة ملتفة بالأعلام المغربية، في المطار، في الشوارع، وكل ركن، ترحيبا بالملك، وكان أن الإعلام الإسباني عبر كل وسائله، نقل بالحرف العريض، والصوت، والصورة!

"المغرب يرحب بـ "ساباتيرو" بعلم إسباني صغير بينما الأعلام المغربية بكبرها معلقة في كل ركن من المدينة". نقلوا هذا لأنهم قاموا بتأويل مجرد دون أن يكلفوا أنفسهم معرفة البروتوكول الملكي الجاري به العمل في الزيارات الملكية للمدن المغربية، واعتبروا ذلك استفزازا وتقليلا من قيمة رئيسهم وعلم بلدهم.

كان عندهم نقص في المعرفة لثقافتنا المغربية، ولطقوس الملكية، وهذا عيب كبير بالنسبة لمهنيي الإعلام. شخصيا كنت ومازلت أوجه انتقادا بناء وموضوعيا في أخطاء نابعة أحيانا عن جهل مثل هذا- والحقيقة أن الأقرباء من زملائي وزميلاتي مايزالون حتى الآن يذكرون الأعلام المغربية الحمراء وهي ترفرف في سماء مدينة وجدة ، وزيارة ساباترو، مقرونين بالاعتراف بخطئهم والتسرع في تأويل مغلوط، خلق بلبلة سياسية بين البلدين في ذاك الوقت، وهذه ليست من الطرائف، بقدر ما هي نتيجة طريفة للقدرة على التأثير إيجابيا على الآخر وجعله يتعلم منك، كما تتعلم أنت منه .. والواقع أنه في المدة الأخيرة بدأ يتجلى بشكل كبير اهتمام الصحافيين الإسبان بالمغرب، وبكل جوانبه الثقافية والتاريخية الخ. كذلك طرحهم الإعلامي يشهد حاليا تناغما لم يسبق أن كان من قبل، وهذا يرجع بي إلى السنوات الماضية، كنت أنتمي لفريق من الزملاء مهنيي الإعلام، كانت للبعض حمولة إيديولوجية متميزة كالعداء للعرب، أو التقليل من قيمة المرأة، أو عنصرية تجاه المغرب، وكنت دائما أردد (طبعا في إطار احترام الزمالة والتعايش لصالح العمل المشترك) عليهم قولة الكاتب الصحفي البولوني المعروف "ريسزرد كبوشينسكي" "الناس السيئة لن تكون أبدا من أحسن الصحافيين"، أومن بهذا التحليل الإنساني، وكذلك أعتقد أنه في مقدورنا التغيير إلى الأحسن إذا عقدنا العزم على ذلك.

سعيدة بودغية تستقبل بمكتبها الأمير الإسباني فيليب حينما كان وليا للعهد